يهود مدينة قسنطينة من خلال رحلات الفرنسيين إبّان القرن 19م

د.صبرينة الواعر *

مقدمة: عرفت الجزائر خلال القرن 19م تغيّرات وتحولات هامة، كان أهمها وأسوأها على الإطلاق الاحتلال الفرنسي لها سنة 1830، والقضاء على السلطة العثمانية. كان هذا الاحتلال الأجنبي بعيدا كل البعد عن ثقافة وعقيدة وفكر الجزائريين، ولم يكن بالسهولة بمكان أن يستوعب الجزائريون هذه السلطة الجديدة والدخيلة على مجتمعهم. كما لم يكن بمقدور الإدارة الفرنسية أن تخترق صفوف الجزائريين، وتستوعبهم وتسيطر عليهم بسهولة.

فكان من الخطوات التي انتهجتها الإدارة الفرنسية لمحاولة احتواء الجزائريين، وسعيا لتحقيق السيطرة الفعلية على البلاد؛ هي العمل على معرفة ودارسة بنيتهم الاجتماعية والثقافية، وإن كانت قد استهلت هذا العمل من خلال جواسيسها الذين أرسلتهم إلى الجزائر لتقصي أخبارها ونقلها إلى فرنسا، نراها تستمر في هذه السياسة، حيث برز عدد من الكتّاب والرحالة الفرنسيين الذين عكفوا على دارسة المجتمع الجزائري، وهذا منذ السنوات الأولى للاحتلال. قسم من هؤلاء الكتاب كان عمله فرديا بداعي الفضول والمغامرة، وقسم آخر كان مكلفا بمهام عسكرية(1)، ونقصد بهم الضباط الذين ساهموا إلى حد ما في التعريف بمناطق الجزائر، وبخاصة ضباط المكاتب العربية، وقسم ثالث من الرحالين كانوا علماء في مجالات مختلفة كالإثنوغرافيا والأنثربولوجيا والجغرافيا والتاريخ والطب وعلم النبات، إلخ...

هذا التنوع الثقافي بين الكتاب ساهم بدوره في تنوع الدراسات المستفيضة حول الجزائر وكافة مقاطعاتها، ونحن من خلال دراستنا هذه سنمعن النظر في رحلات الفرنسيين إلى الشرق الجزائري، وبالضبط نحو مدينة قسنطينة، هذه الأخيرة التي جلبت انتباههم نظرا لشهرتها التاريخية والحضارية، وكذلك تعذرها على الإدارة الفرنسية التي لم تتمكن من السيطرة عليها إلاّ بعد سبع سنوات من دخولها إلى الجزائر.

دراستنا لن تكون مخصصة للمدينة وتطورها العمراني، وإنّما هي دراسة اجتماعية تعنى بفئة كانت في وقت من الأوقات جزءا من المجتمع المدني للمدينة، ونقصد بكلامنا فئة اليهود الذين شكلوا نسبة معتبرة فاقت 6000 نسمة خلال القرن 19م، وكانت قسنطينة بالنسبة لليهود مركز إقامتهم الرئيسي في الشرق الجزائر، ولعّل قول بنجامين سطورا Benjamin STORA، المؤرخ الفرنسي- يهودي الديانة، قسنطيني المولد- بأنّ "قسنطينة هي أورشليم المغرب"(2) أقرب إلى الحقيقة، بالنظر إلى التنوع الطائفي والثقافي الذي شهدته مدينة قسنطينة، والذي ازداد بعد السيطرة الفرنسية.

* أستاذة محاضرة في التاريخ الحديث والمعاصر- المدرسة العليا للأساتذة بقسنطينة.

كانت قسنطينة فسيفساء إثنية وثقافية، تضم العرب والموريسكيين والزنوج- الوصفان بلغة أهل قسنطينة-، والميزابيين، بالإضافة إلى استقبالها لأقليات أخرى، حيث ضمت إيطاليين ومالطيين وصقليين وإسبان(3)، وفي مصادر أخرى أعدادا من سردينيا، والذين صنفتهم الدفاتر الشرعية من أهل الذمة، واحترمت ديانتهم وطقوسهم، ولكن وفق حدود رسمتها السلطة العثمانية.

هذا التنوع الإثني ورد في كتب الرحالة الذين زاروا قسنطينة، ومن أبرزهم الكاتبة لويز ريجيس Louise REGIS، والتي أقامت مدة معتبرة بهذه المدينة العتيقة.

وباعتبار اليهود كانوا فيما مضى جزءا من المجتمع القسنطيني، فما هي صورهم في مخيال الكتاب والرحالة الفرنسيين؟ وإلى أي مدى وفّق هؤلاء في إيضاح وضع اليهود وتفاعلهم مع المجتمع؟

1- أولى الرحلات إلى قسنطينة، رحلة الطبيب سديّو سنة 1838 ومشروع المواطن اليهودي: إذا كان القرن 19م قد أثّر بالسلب على الجزائريين الذين وقعوا تحت نير الاستعمار الفرنسي، إلاّ أنّه كان فاتحة عهد جديد بالنسبة للأقلية اليهودية، حتى وإن لم يتضح هذا الأمر بشكل ملموس في العقدين الأولين من الاحتلال.

فلا يختلف إثنان أنّ مرسوم كريميو Crémieux سنة 1870م لتجنيس يهود الجزائر، قد أعطى حقوقا مدنية واجتماعية لهذه الفئة، تكفلها الجنسية الفرنسية، وهذا بدوره غيّر من مجرى العلاقة بين اليهود والمسلمين في الجزائر.

إنّ مرسوم كريميو كان نتيجة لإرهاصات سابقة ابتدعتها الإدارة الفرنسية لتحقيق سيطرتها على الجزائريين، ولعّل هذا ما سنستشفه في روايات الرحالة الفرنسيين، ونحن لا نستعجل الحكم إذا قلنا أن بعضهم قد آمن منذ بدايات الاحتلال بضرورة الرقي باليهود ومنحهم حقوقا أوسع على حساب العرب، ويتضح هذا الأمر في أولى الدراسات التي عنيت بمدينة قسنطينة، والتي نشرت سنة 1838م للطبيب سيديّو Sédillot بعنوان حملة قسنطينة سنة 1837 (Campagne de Constantine de 1837)، حيث تحدث عن وضع مدينة قسنطينة عشية السيطرة الفرنسية عليها، والفوضى والسرقة التي انتشرت في أحيائها وشوارعها، بخاصة من طرف اليهود الذين انتهزوا الفرصة شبابا وشيبا، وقاموا بنهب وسلب منازل القسنطينيين، وقد برر موقف اليهود بالتعسف الذي يلقونه من المسلمين، والعزلة المفروضة عليهم، فكان احتلال قسنطينة فرصة لانتقامهم من مسلميها، حيث قال: «إنّ اليهود كما في باقي الدول يلعبون دورا كبيرا، يعيشون في عزلة بين السكان الذين يستغلونهم، لكنهم يظهرون شجاعة لإرضاء جشعهم، فقد كانوا أول من دخل المنازل لنهب كل ما تقع أيديهم عليه، حتى الأطفال والشيوخ منهم، ونهبوا كل ما يستطيعون حمله، من بطانيات ووسائد وفرُشْ كما سرقوا لوحات المحلات التجارية، وحتى المسامير وكل

ماله قيمة، وقد قوبل هذا الجشع بالضرب بالعصي والبنادق، ومع ذلك لم يرغبوا في التخلي عن المسروقات»[4].

في نظر سيدييّو Sédillot أنّ الاحتقار الذي تعرّض له اليهود داخل المجتمع القسنطيني والجزائري ككل، والعزلة التي فرضت عليهم كانت سببا في مثل هذه الأعمال السلبية. لذلك طرح فكرة منح اليهود في الجزائر جملة الحقوق المدنية والاجتماعية على غرار ما يتمتع به اليهود داخل فرنسا، والذين أثبتوا جدارتهم، وكان لهم دور فعّال في ازدهار وتقدم الدولة الفرنسية، وقد كتب حول هذا الشأن قائلا: «لقد منح يهود فرنسا نفس الحقوق المدنية والاجتماعية والتي حوّلتهم إلى مواطنين شرفاء، وحققوا نجاحات في مجالات كثيرة، وبخاصة في الصناعة»[5].

لذلك اقترح سيدييّو Sédillot تطبيق هذه السياسة لخلق "أمة يهودية[6]"– على حد قوله– «تجد وطنا لها وسط أمم هي صاحبة الأرض. وباستطاعة اليهود وقتها تحقيق الثروة عن طريق وسائل مشروعة، تسمح لهم بتنمية روح العمل والصناعة والمثابرة والمحاسبة، وهم أهل موهبة في هذا المجال»[7].

يقصد سيدييّو Sédillot بكلامه أنّ فتح الآفاق أمام اليهود وفك العزلة عنهم سيجعلهم يفهمون معنى المصالح المشتركة للبلاد التي يعيشون فيها، ونحن لا نتفاجأ بكلام سيدييّو فعلى الرغم من كونه طبيبا وليس سياسيا، ومهمته في قسنطينة كانت متعلقة بمجال الصحة والعلاج، غير أنّه صرّح بتزكيته للمصالح الفرنسية في إفريقيا الشمالية وشرعية الاحتلال الفرنسي للجزائر، وقد اتضح هذا في مقدمة كتابه حيث تحدث عن قيمة وأهمية الثروات الباطنية والمعدنية، والأراضي الخصبة التي تتمتع بها المستعمرات، وكذا النشاط التجاري والثراء الذي سيعود به على فرنسا. ويرى أنّه «من الواجب على كل مواطن فرنسي شريف أن يسعى للحفاظ على المستعمرة، ويتوجب على العقول النيّرة البحث عن الوسائل الضرورية لتحقيق التقدم وخفض الأعباء»[8].

لذلك فنظرة سيدييّو إلى اليهود هي نظرة السياسي لا الإنسان، وهذا ما يفسّر عدم اهتمامه بتوضيح حياتهم الاجتماعية والاقتصادية فعليا في مدينة قسنطينة باعتبارهم جزءا من التركيبة السكانية للمجتمع القسنطيني، هذا الأخير الذي لم يلق بدوره اهتماما يذكر لدى هذا الكاتب الذي صرّح قائلا: «إنّ الفضول لدراسة عادات العرب لم يكن من اهتماماتي، لقد شعرنا أنّ قوتنا قد استنفذت»[9]، وقد تذرع بالصعوبات والمشاق التي لقيته أثناء ذهابه إلى قسنطينة وعودته منها، وعلى الرغم من عدم دراسته لسلوكيات العرب غير أنّه كان سريعا في الحكم عليهم، حيث اكتفى منذ البداية بإلقاء التهم على العرب الجزائريين، ومعاملتهم السيئة لليهود، وهذا لا يتماشى والحقيقة التاريخية، كما يبرز مدى تناقض هذا الكاتب مع المنطق، فإذا كان الشخص يجهل الآخر، فهل باستطاعته أن يصدر حكما عليه، سواءً أكان ذلك بالإيجاب أو بالسلب؟

الواقع أنّ سيديّو كان في مهمة رسمية متعلقة بمجال الصحة، وفي الوقت نفسه كان قريبا من الأوساط السياسية الفرنسية، لذلك لا ننتظر منه موضوعية في الطرح، بقدر ما نلحظ اهتماما بالمخططات الفرنسية، فكيف نفسر إذا تحصله على وسام جوقة الشرق la légion d'Honneur برتبة فارس[10]، وهو تكريم لا يحظى به سوى من قدّم خدمات للدولة الفرنسية.

2- **جولة بول بورد في مدينة قسنطينة ومسألة إدماج اليهود:** كانت زيارة بول بورد Paul BOURDE إلى مدينة قسنطينة في إطار زيارة برلمانية انطلقت من مرسيليا قاصدة الجزائر، وكان ذلك بتاريخ 22 سبتمبر 1879م، ضمت 22 نائبا برلمانيا و3 أعضاء من مجلس الشيوخ و5 أمناء مكاتب و8 مراسلين؛ كان من ضمنهم بول بورد مراسل جريدة "le Moniteur universel"[11].

كانت مهمة هذه الرحلة البرلمانية هي البحث عن الوسائل الكفيلة لتنمية وتطوير الجزائر، ومع ذلك لم تكن ذات طابع رسمي، وقد زارت اللجنة البرلمانية مناطق عديدة في المقاطعات الثلاثة، الجزائر ووهران وقسنطينة، وكان بورد يسجل انطباعاته حول الرحلة، ويتضح لنا منذ البداية أنّ رحلته مجرد ترجمة لمواقفه السياسية والوطنية التي يزكي من خلالها الاستعمار الفرنسي للجزائر ومشروعيته، فهو بذلك لا يختلف عن الدكتور سيديّو؛ فلم تكن زيارة بورد بداعي الفضول أو المغامرة أو حتى الاستكشاف، أو لكونه صحفيا ببساطة، ولكن لإثبات تفوّق الحضارة الفرنسية وتخلف الجزائريين، ويتأكد لنا ذلك في ثنايا صفحات كتابه "عبر الجزائر، ذكريات الرحلة البرلمانية سبتمر- أكتوبر 1879"؛ فكان صاحب رسالة الهدف منها جعل الجزائر فرنسية أرضا وسكانا.

القارئ لملاحظات بورد يستشف استصغارا واحتقارا لأسلوب عيش وعادات الأهالي الجزائريين، وعدم رضاه عن الحواضر الجزائرية التي يرى أنّها تفتقر للصبغة الجمالية والمدنية بما فيها مدينة قسنطينة، فعلى الرغم من عراقتها وتاريخها الحافل، غير أنها في نظر بول بورد مدينة جافة تفتقر للمنشآت الضخمة ما عدا تلك التي أقامتها السلطة الفرنسية، ويستهل كلامه حول مدينة قسنطينة بالقول: «هذه البلاد النوميدية الوعرة، البرية، العارية، والحزينة، والتي أنجبت عرقا قويا أقامها على جرف شرس منقطع النظير...»[12].

موقف بورد نابع من جهله لطابع المدن العربية الإسلامية، فهو يستغرب من السكنات المتلاصقة والمتقابلة والتي تحجب ضوء النهار[13]، ومن مظهر السكنات الخارجي الذي يفتقر للنوافذ وللصبغة الجمالية[14]. لكنه لا يعلم أنّ الأزقة الضيقة والمنازل المتقاربة توفر الأمن وبخاصة للنسوة، كما أنها تساهم في توفير الهواء البارد والمنعش في فصل الصيف. وأنّ الطابع العمراني الإسلامي لا يهتم بالمظهر الخارجي بقدر اهتمامه بالمظهر الداخلي[15].

جاء بول بورد إلى الجزائر وهو مقتنع بأنّ ثقافة بلاده وحضارته هي الأرقى، وأنّ الاستعمار الفرنسي للجزائر واجب أخلاقي يخدم الفرد الجزائري، وهذا ما يفسّر نفوره من الثقافة المحلية التي استغربها و لم

يستسغها؛ فكيف يتعجب من ارتداء النسوة المسلمات للباس محتشم، وقد أدهشه الأمر أكثر حينما كان متواجدا في مدينة قسنطينة، ورأى النسوة تضعن الحايك الذي يخفي أجسامهن ويحجب وجوههن، فأعتبره اللباس الأكثر قبحا بين الأزياء التي رآها في القطر الجزائري[16].

وسرعان ما تتضح لنا خلفية بول بورد حول الأمر لمّا يخصص جزءا من مذكراته حول جولته في قسنطينة عن جمال النسوة القسنطينيات، ويقصد بهن النسوة اليهوديات القاطنات بحومة اليهود "الشارع"، والذي تمكّن من رؤيتهن، ودخل منازل إحداهن، وقد استغرب ذلك في بداية الأمر، كون دخول منازل العرب ورؤية نسائهن أمر غير مقبول، لكنه وجد الأمر مختلفا في حومة اليهود، لأنّ المجتمع اليهودي لا يحجب المرأة، وبإمكانها الخروج والتجوال كاشفة عن وجهها، وقد كتب واضعا وصفا دقيقا لإحدى اليهوديات: «ذهبت في أحد الأيام إلى الحي اليهودي برفقة أحد الرجال الذين سعدت بمعرفتهم أثناء سفري، وطلب منّي الدخول إلى أحد المنازل التي مررنا بالقرب منها، وبسرعة رأيته يناديني من نافذة الطابق الثاني للمنزل، ويطلب مني الصعود، وبينما أنا معه قدّم لي امرأة جميلة لم أرى مثلها من قبل، لقد كنت مبهورا، عمرها عشرون سنة، ذات شعر كثيف وأشقر، رقبتها مرنة وممشوقة، ذات ملامح رقيقة، وذراعين لا غبار عليهما، خصرها نحيل...، وموسيقية ممتازة...»[17].

رأى بول بورد أنّ المرأة اليهودية متحررة على عكس بقية النساء الجزائريات اللواتي تعشن حياة منعزلة جدا، وسخيفة بلا ثقافة، ولا تتمتعن بالنعم الروحية للمرأة المتحضرة[18]؛ فكان حكمه خاطئا لأنه بكل بساطة لم يتمكن من دخول منازل المسلمين ليعرف عادات وأعراف الأسر العربية ليطلق مثل هذه الأحكام.

أمّا فيما يتعلق بحياة اليهود عامة داخل المجتمع القسنطيني، فقد كانت نظرة بول بورد سلبية تجاه تعامل العرب معهم، بدعوى أنّهم كانوا يحتقرونهم ويعنفونهم، وصاروا موضوعا للسخرية وللتسلية في مقاهيهم. ولم يجد بول بورد عناءً في سرد روايات العرب حول اليهود ليؤكد فكرته[19].

موقف بورد يطرح تناقضا كبيرا؛ فمن جهة يتحدث عن تحرر المرأة اليهودية، ومن جهة أخرى يؤكد فرضية أنّ اليهود مغلوبون على أمرهم، فكيف يتماشى التحرر مع الحصار المفروض عليهم من طرف العرب المسلمين.

أمّا فيما يتعلق بمسألة تعنيف العرب لليهود، فهذه رؤيا لا يمكن إنكار جزء يسير منها، لكن لا ينبغي تأكيدها، فاليهود هم أهل ذمة في نظر السلطة الإسلامية، وهذه الأخيرة من شأنها أن تضع ضوابطا وترسم حدودا يحترمونها كقضية الملبس والمعابد، وحتى الأحياء والحارات التي يقيمون بها، والتي يراها الأوروبيون شكلا من أشكال التمييز والإقصاء[20].

إن التحرر والتحضر الذي يدعو إليه بول بورد هو انعكاس لسياسة الاندماج التي ابتدعتها السلطة الفرنسية، والتي يرى بورد أنّها الحل لتحقيق الرقي والازدهار للجزائريين، لذلك زكّى مرسوم كريميو حول تجنيس اليهود. ويرى أنّ التواجد اليهودي في مدينة قسنطينة والذي يفوق 5000 نسمة(21) بإمكانه إن يقدم خدمات للسياسة الفرنسية في الجزائر، عن طريق تطوير هذه الجالية بمنحها فرصة التعليم وإتقان اللغة الفرنسية، لكي يكون بمقدورها مجابهة تحديات التطور. فقد لاحظ بورد أن اليهود الذين تجنسوا أغلبهم أميين لا يفقهون شيئا حول اللغة الفرنسية، وقد لمس هذا في يهود مدينة قسنطينة، فبسبب جهلهم كانوا خاضعين لنائبين من أصحاب النفوذ يسيّرونهم كما يشاءون(22). لذلك استعرض بول بورد حلا يكمن في مواصلة سياسة الإدماج، والعمل على فرض الخدمة العسكرية على الشباب اليهودي لمدة سنة بفرنسا، وهذا ما سيسمح لهم بالتعرف على وطنهم الجديد(23).

في المقابل لم يقدم بورد عرضا للمسلمين الجزائريين، لأنه أدرك أن الفرد الجزائري يرفض صيغة الإدماج التي عرضت عليه، لأنّها تضعه موضع المواجهة مع دينه ولغته وعاداته وتقاليده، وقد أقّر بورد بذلك حينما قال: «حلم الإدماج لدى الأهالي هو أن نتركهم جميعا للغتهم، يعني لأفكارهم، كأنّك تقول المثل العربي "يرغب في إمساك الريح بالشبكة»(24).

خصّص بول بورد فصلا في كتابه حول مسألة الأهالي، ورأى أن الإدماج هو الحل الكفيل لمليونين من السكان، وكتب في آخر الفصل: «في الختام، أعود إلى نقطة البداية، القضية الجزائرية نتجت عن سببين، وهما الاستعمار الفرنسي ومسألة إدماج الأهالي. إنّ التخلي عن أحدهما يجعل الآخر معقدا وغير قابل للحل، لأنّهما شيئان متكاملان. ففتحنا لن يتحقق بشكل نهائي بالاعتراف به فقط، ولكن حينما يصير نعمة بالنسبة للأهالي»(25).

3- **إقامة لويس ريجيس بقسنطينة؛ الحياة الاجتماعية لليهود، وأنشطتهم الاقتصادية:** لويز ريجيس Louise Régis كاتبة ورحالة فرنسية زارت الجزائر سنة 1879م متنكرة في هيئة رجل، واشتهرت ببحثها حول مدينة بسكرة، والذي نشر في مجلة العالمين "revue des deux Mondes"، لكنها في عملها الثاني حول قسنطينة كشفت شخصية الأنثى، حيث ألّفت كتابا بعنوان قسنطينة؛ سفر وإقامة Constantine, voyages et séjours، وقد نشر بباريس سنة 1880م.

قضت ريجيس حوالي ثلاثة أشهر في مدينة قسنطينة، في الفترة الممتدة بين 15 ماي 1879 إلى بدايات شهر سبتمبر حيث سافرت إلى باتنة، ومنها إلى بسكرة لتخرج منها بتاريخ 26 سبتمبر عائدة إلى الجزائر، ومن ثم إلى فرنسا. وأثناء تواجدها في قسنطينة كانت تزور بين الفينة والأخرى ضواحيها والمدن القريبة منها كمدينة ميلة.

قدمت الرحالة لويز ريجيس عملا قيّما، ويعد من أشهر الأعمال التي اعتنت بتاريخ مدينة قسنطينة خلال القرن التاسع عشر، فقد أحاطت بمختلف جوانب الحياة اليومية للفرد القسنطيني بمختلف أطيافه، من مأكل ومشرب، ونمط سكن، ومعيشة، وزواج وطلاق، كما اهتمت بتسليط الضوء على النشاطات الحرفية والصناعية في المدينة، والتغيرات العمرانية التي شهدتها بعد الاحتلال الفرنسي. كما لم تغفل تاريخ المدينة في العهد العثماني، فخصصت جانبا من عملها للحديث عن صالح باي.

كان وصف ريجيس وصفا دقيقا لم نجده في أعمال أخرى مشابهة، فعلى سبيل المثال لا الحصر، إذا ما حاولنا أن نقارن بين رحلتها، ورحلة بول بورد- سابق الذكر- نجد أنّها قد تفوقت عليه في نقاط كثيرة كان أهمها موضوعيتها حين تناقش وضع الأهالي وتفاعلهم مع الأوروبيين، فكانت رحالة مغامرة وفضولية، و لم تكن على غرار بورد مراسلة حاملة لأجندة موالية للسلطة الفرنسية، وربما هذا ما أزعج أحد المعجبين بعملها، والذي حرّر مقدمة كتابها وهو ميزيار A.Mézières- باحث في الأكاديمية الفرنسية- حين اعترف أنّه بالرغم من إعجابه بالوصف الدقيق لمدينة قسنطينة، وتفوق ريجيس التي خدمتها أنوثتها في التقرب من النساء العربيات، ومعرفة ما لا يعرفه الآخرون، أنّه يعارضها فيما يتعلق بموقفها الحاد تجاه الكولون(26).

احترمت لويز ريجيس المجتمع القسنطيني وعاداته، وتمكنت كونها إمرأة من أن تخترق المجتمع النسوي، فقدمت صورة جميلة للمرأة القسنطينية المسلمة، وأعجبت بارتدائها الحايك الذي اعتبره بول بورد أقبح لباس على الإطلاق، وقد كتبت حول هذا الشأن: «تلبس النسوة القسنطينيات الحايك، وترتبن طياته بطريقة فنية، والحايك قطعة قماش طوله خمسة أمتار وعرضه متر ونصف، يكون أكثر أو أقل نعومة حسب إمكانيات من ترتديه. واللون الأبيض منه لنساء الطبقة الرفيعة، والأزرق لعامة النساء...»(27).

ورغم إقرار ريجيس بأنّ المرأة العربية أمية ومسجونة داخل منازلها، لكنها ترى الأمر مألوفا، ولا يختلف كثيرا مع المرأة الأوروبية التي ترغم على أداء واجبات تخلى عنها الزوج، فهي التي تسهر على مراقبة ومتابعة تعلم أطفالها من ذكور وإناث، كما أوكل لها أمر إدارة ممتلكات العائلة، بالإضافة إلى آلاف الالتزامات، وبالتالي فإنّ وضع الأوروبيات يعبر بحق عن منتهى العبودية(28).

كما تنعكس إنسانية وموضوعية ريجيس في كتابها حين تأسفت عن بداية اختفاء معالم الطابع المحلي للمدينة التي احتلها الفرنسيون عام 1837م، لتأسيس الحي الأوروبي الذي أخد في التوسع أكثر فأكثر. مع ذلك لا ننكر أنها بررت موقف الفرنسيين بقولها إنهم كانوا مرغمين على تحطيم منازل تعود لعائلات كبرى محلية(29).

لكن ما يهمنا في رحلة لويز ريجيس هو معالجتها للتواجد اليهودي بقسنطينة، ويلفت انتباهنا أنّها لم تقدم إحصاءات لأعدادهم في المدينة رغم المعطيات الكثيرة التي قدمتها، لكن المتتبع لرحلتها يوقن أنّها لا تميل إلى لغة الأرقام بقدر ما تميل إلى الرواية والسرد.

إنّ أهم ما جذب انتباه لويز ريجيس هو الحركة الدؤوبة لليهود في قسنطينة فيما يتعلق بالمجال الحرفي والصناعي والتجاري، وكان من بين أهم مراكز نشاطهم ساحة القوافل التي صارت تعرف بساحة قصر العدالة بعد الاحتلال الفرنسي؛ وهي عبارة عن مساحة مربعة يقام فيها مزاد علني تباع فيه السلع والملابس المستعملة. يقصدها العرب والفرنسيون بغية الاستفادة من بعض الصفقات المربحة، أو لرؤية الحشود المتنافرة.

تقول ريجيس إنّ هذه الحشود «تتألف بالخصوص من اليهود الذين يتجمهرون، وينادون بعضهم البعض مع الكثير من الضوضاء، هذا ويخصص جزء من الساحة لورشات صغيرة للصاغة (بائعو المجوهرات) ولا تتعدى مساحتها تسعة أقدام مربعة»(30)، ثم تواصل ريجيس وصف هؤلاء الباعة اليهود «هؤلاء الإسرائيليون بملابسهم التي لا تختلف عن تلك التي يلبسها العرب ما عدا غياب البرنوس، يصنعون بمطارقهم الصغيرة والخفيفة قلادات جميلة من الذهب والفضة، يقتنيها الأهالي كهدايا للخطوبة والزواج»(31).

توزعت الأنشطة الحرفية لليهود في شوارع مختلفة من المدينة، والتي خصّص كل واحد منها لحرفة معينة، فكان هناك شارع مخصص للخياطين اليهود المنشغلين بخياطة وتطريز السترات من الحرير أو الصوف، والتي قالت عنها ريجيس إنّها كانت مختلفة الألوان(32). بالإضافة إلى حرف أخرى متنوعة امتهنها اليهود، قام بتحديدها الباحث توبياك Taupiac في كتابه حول اليهود الأهالي، حيث أقرّ أن يهود قسنطينة قد نشطوا على غرار يهود الجزائر في مجال الفلاحة، وامتلكوا أراضي معتبرة، وقدم قائمة بأسماء اليهود ملاك الأراضي في قسنطينة(33)، واستعرض توبياك قائمة لمهن أخرى لليهود في مدينة قسنطينة، ضمت(34): النجارة والخياطة والتزيين والزركشة والتطريز وصناعة الأحذية والدهانة وصناعة المجوهرات (الصياغة) وتلوين الزجاج والقصابة وصناعة النحاس والسمكرة وحياكة الجوارب وتجليد الكتب؛ فكانت بذلك الشوارع القسنطينية مزدحمة بالصناع والحرفيين، وكان من أبرزهم يومها أهل ميزاب الذين اعتبروا المنافسين الأوائل لليهود، لكنهم لم يتفوقوا عليهم، وهذا ما أشارت إليه ريجيس «إذا كان الميزابيون أهل كلام وإقناع، يعترف به الجميع في مجال التجارة، غير أنّهم لا يعدون شيئا بعد اليهود في هذا المجال»(35).

إنّ المنافسة التي برزت بين اليهود وبني ميزاب لها أسبابها، وكان من أبرزها أنّ كلا الطرفين قد امتهن البيع بالتجوال؛ وذلك بالتنقل بين المدن والأرياف، كما أنّ أهل ميزاب بقسنطينة نشطوا في مجالات كانت حكرا على اليهود، ونقصد بها البقالة وبيع الأقمشة(36).

انتبهت لويز ريجيس إلى النشاط الاقتصادي المتنامي ليهود مدينة قسنطينة، وتحدثت عن أول محل تجاري للبيع بالتجزئة كان ملكا ليهودي يدعى ماردوشي Mardoché، كان هذا المحل يتواجد بشارع فرنسا(37). ويحوي هذا المحل مختلف الأقمشة الشرقية من الستان المقصب بالذهب، والشاش الأبيض المنسوج، والأوشحة الحريرية الزرقاء، والقطيفة المختلطة بآلاف الألوان، ويتم جلب هذه الأقمشة من فرنسا، غير أنّ الأصلية منها يتم جلبها من دمشق والهند(38). وهذا ما يدل على توسع النشاط التجاري اليهودي وغناه أواخر القرن التاسع عشر، وبداية ظهور يهود أصحاب رؤوس أموال اعتبرتهم ريجيس عنصرا فعالا في مجال التجارة(39)، وفي الوقت ذاته كان محطما للعنصر العربي.

وتقصد ريجيس بكلامها القروض الربوية التي عاني منها كافة الجزائريين، واستفاد منها اليهود خاصة بعد صدور التشريعات العقارية المتعلقة بمصادرة الأراضي كالسيناتوس كونسلت(Senatus Consulte) 1863م، وقانون فارني(Warnier) 1873م. وتبرز ريجيس صورة اليهود الماكرين لا المستضعفين على عكس ما لّمح له العديد من الرحالة والكتاب الفرنسيين أصحاب الفكر الإستعماري فكتبت «لطالما كان اليهود ملعونين لدى المسلمين وذلك منذ قرون، ومرسوم الإدماج الذي سنّه أحد زملائهم (كريميو) زاد من حالة الاغتراب التي يشعرون بها... لكن في الوقت الذي تعرّض فيه اليهود للاضطهاد في عدد من البلدان المسيحية كإيطاليا وإسبانيا والبرتغال وحتى فرنسا؛ كانت الشعوب الإسلامية هي الوحيدة التي وجدوا فيها ملاذا آمنا، وكان المسلمون أكثر تسامحا وعدلا معهم، وفي مقابل اللجوء لم يطلب منهم سوى مهاراتهم التجارية. واليهود من جانبهم لم يتطاولوا على القانون في آلاف العمليات التي قاموا بها لإغناء الثروة العبرية... أجبرت عمليات مسح الأراضي العرب الذين تراجعت ثروتهم على الاقتراض من اليهود الذين استغلوا الفرصة، فقد حصّلت الديون ثروات قيّمة، لذلك رفض اليهود تجديد الرهن، وحازوا على الأراضي والمنازل من المقترضين المساكين»(40).

قويت بذلك شوكة اليهود في المدينة، وصاروا ملاكًا لأكثر المنازل جمالا في قسنطينة، بعدما كانوا يقطنون في حومة اليهود(41) التي ظلت للفقراء منهم والذين لم يحصلوا ثروة. (الشارعْ بلغة أهل قسنطينة).

وفيما يتعلق بعادات وتقاليد الأسر اليهودية في مدينة قسنطينة، لم تهتم لويز ريجيس بالكشف عنها ووصفها، فلم تهتم بطقوسهم وعاداتهم الدينية، حيث لم تتحدث عن معابدهم (كنيسهم Synagogue)، ولا عن رجال دينهم من الحاخامات أو الرّبي le Rabbin. وهذا يثير تساؤلات عدة، خاصة وأنّها اهتمت في رحلتها بالحديث عن المنشآت العمرانية والدينية في قسنطينة، حيث أشارت إلى جوامع قسنطينة والكاتدرائية الفرنسية.

لكن سرعان ما يزول الغموض، فتبعا لما كتب حول قسنطينة طيلة القرن التاسع عشر لم نجد إشارة أو إيضاح لوجود كنيس رسمي لليهود، ويتجلى هذا في كتابات اليهود أنفسهم؛ حيث لم يؤكد الحاخام

الكبير (الرئيس) لمقاطعة قسنطينة ونواحيها الرّبي كوهين AB Cahen سنة 1867 وجود معبد لليهود حيث كتب «أقام اليهود فيما مضى في شارع باب الجابية، ويقال إنّه أقيم فيه معبد، لكن لا توجد أدلة تؤكد هذه الرواية، وفي عهد صالح باي منح اليهود أرضا واسعة ليقيموا عليها، توجد بين سوق العصر وباب القنطرة...»[42]. دون أن يشير إلى وجود معبد يهودي رسمي في قسنطينة.

الأكيد أنّ يهود قسنطينة قد أسسوا معبدا لهم مطلع القرن العشرين قرابة شارعهم، هذا المعبد صار في الوقت الحالي المركز الثقافي الإسلامي أسفل ثانوية رضا حوحو (Lycée d'Aumale)، وقد أشير إلى المعبد في كتاب حول قسنطينة وبسكرة سنة 1923 لمؤلف مجهول جاء فيه «يتواجد الكنيس بالقرب من ساحة لاقاليت la Gallette[43] في شارع تيير la rue Thiers، ليس بعيدا عن الشارع القديم في سيدي جليس»[44].

والغالب أن معبد اليهود كان مترلا من منازلهم يجتمعون فيه لأداء صلواقم، كما جرت عليه العادة في مدن جزائرية كثيرة.

ركزت لويز ريجيس على إيضاح تفاصيل في ملابس اليهود، وحسب قولها أنّه لا توجد اختلافات كثيرة بينه وبين الرداء العربي فكتبت «اعتمد الجيل الجديد من اليهود أصحاب الثروة اللباس الأوروبي، لكن أباءهم حافظوا على اللباس الشرقي الذي تميّز على اللباس العربي بعدم وجود خيوط من وبر الجمال حول العمامة، كما لا يرتدي اليهودي البرنوس، والجوارب التي يرتديها الأغنياء من العرب، إنّما يرتدون جوارب بيضاء أو رمادية طويلة»[45].

كما اهتمت لويز ريجيس بوصف المرأة اليهودية ولباسها، لكنها فاجأتنا حينما دحضت نظرة بول بورد، وأنكرت أن تكون النسوة اليهوديات جميلات كالعربيات، حيث قالت: «النساء اليهوديات نادرا ما تكّن جميلات، وهنّ في الغالب ضخمات وثقيلات الوزن»[46].

وقد أسهبت لويز ريجيس في وصف لباس اليهوديات، فكتبت «...بعد زواجهن يغطين رؤوسهن بمنديل من الحرير الأسود على شكل قبعة على الجبين، يربط من الخلف، كما يوضع قماش آخر من الدنتيل، حيث يطوى ويمرر حول الذقن، ويربط فوق الرأس. تلبس النسوة على الدوام فستانا من الحرير، وسترة صغيرة مطرزة بالذهب، مفتوحة من الذراعين، ويضعن على أكتافهن شال مطوي بلون الرمان الأبيض. أمّا اليهوديات الفقراء فيلبسن لباس النساء العربيات من الطبقات الفقيرة»[47].

كما تحدثت لويز ريجيس عن يوم السبت Sabat (شبات بالعبرية)، يوم راحة وعطلة اليهود، الذين يغلقون فيه محلاقم، ويفتحون أبواب منازلهم ويجلسون عند عتباقا، وتلبس النسوة أزهى حلة مختلفة الألوان، ومزينة بأبهى الحلي الذهبية. ويفترش الرجال الزرابي للجلوس على الأرض، ويجلبون أدوات موسيقية كالقيتار والكمان، ويمتّعون أسماعهم[48].

إن خروج اليهود يوم السبت إلى الأزقة والشوارع، ووقوف نسائهم أمام أبواب منازلهن، كان أبرز ما رواه الرحالة الأوروبيون، وأيضا المصورون الذين تركوا لنا صورا رائعة عن المدن الجزائرية وسكانها في القرن التاسع عشر.

كانت رحلة لويز ريجيس إلى قسنطينة رحلة مستطلعة متأثرة بالجو الشرقي الذي ألهم العديد من الكتاب الغربيين المستشرقين الذين كشفوا لنا لمحات من تاريخ العرب شرقا وغربا، لكنها تبقى كتابات حبيسة أقلام أصحابها، فالعمل المقدم من طرف لويز ريجيس لم يكن له صدى في الأوساط الفرنسية لكونه مجرد مغامرة لإمرأة داخل أراضيهم فيما وراء البحار، والأمر سيّان بالنسبة إليها، واتضح هذا في آخر سطور رحلتها، والتي قالت فيها: «نتمنى لمستعمرتنا الجميلة مستقبلا سلميا يسود فيه الانسجام والإندماج بين أعراقها. هذه الأرض القريبة من فرنسا...لا ينبغي أن تكون بالنسبة لأبنائها بالتبني مركزا للاضطرابات السياسية...»[(49)].

خاتمة: في الأخير تبقى رحلات الفرنسيين والأوروبيين ترجمة لأحاسيسهم وميولهم، فلم تكن أحكامهم صحيحة على الدوام، خاصة الرحالة المتعصبون لثقافتهم الغربية وللفكر الاستعماري، وحتى المغامرون والفضوليون منهم لم يختلفوا عنهم كثيرا لأنهم ببساطة نظروا بنظرة فوقية تجاه كل ما هو جزائري، وكانت أحكامهم تعتمد على المقارنة بين المجتمع الغربي والمجتمع الإسلامي، وهذا هو الخطأ الذي اقترفوه، كان عليهم أن يوصلوا صورة ما يروه، وليس محاولة تغييرها كلياً.

من جانب آخر، وهو متعلق بدراسة المجتمع اليهودي؛ نرى أن الفرنسيين الذين ساندوا اليهود كانوا في الأصل يهودا، أو ممثلين للسلطة الفرنسية التي كانت تسارع الزمن لتحقق معادلة الإدماج والسيطرة على الجزائر. وإمّا من الناقمين عليهم، في إطار ما يسمى بمعاداة السامية، دون أن ننسى بعض المسيحيين منهم والناقمين على كل ما هو مسلم. لذلك كانت أعمالهم عبارة عن ومضات تاريخية ناقصة وغير مترابطة، أوجدت ثغرات لا يمكن ملؤها لانعدام أدلتها وأحداثها.

ومع ذلك نحن لا ننكر دور هذه الرحلات في إيضاح صورة المجتمعات، لكنها تبقى دراسات حبيسة أحكام أصحابها، ولذلك فرغم توفر دراسات كثيرة في مجال الرحلة في الجزائر، لكنها تعد جزءا من المصادر التاريخية وليست قاعدتها.

الهوامش:

(1)- نذكر أرنست مرسييه Ernest Mercier، الضابط العسكري، ورئيس بلدية قسنطينة أواخر القرن 19م ؛ ألّف كتابا من جزئين حول تاريخ مدينة قسنطينة الصادر سنة 1908م. من الضباط كذلك كزافييه كوبولاني Xavier Coppolani هو مسؤول عسكري نشط في موريتانيا من مواليد سنة 1866. توفي سنة 1905 على يد أحد المرابطين الموريتانيين، ألّف كتابا حول الطرق الصوفية الإسلامية في الجزائر مع كاتب آخر يدعى أوكتاف ديبون، ينظر Les confréries religieuses musulmanes, A. Jourdan (Alger), 1897.

2- Benjamin Stora, le Jérusalem du Maghreb; Conférence donnée au musée d'art et d'histoire du Judaïsme à Paris, le Dimanche 14 Mai 2010./www .Constantine-hier-Aujourd'hui.fr/images/divers/conférence_b_stora. pdf.
(3) -M A de Montezon, la vérité sur l'Algérie de détails et de considérations sur les mœurs et les usages des Indigènes, Paris, 1851, p17.---- (4)-G . Sédillot, Campagne de Constantine de 1837, Ed. Crochand et C libraires, Paris, 1838, p 251-252.---- (5)-Ibid, p 253

(6)- ورد لفظ الأمة la Nation، بدل الأقلية، أو الجالية، ولقد استخدمه الكاتب في حديثة عن العرب المسلمين كذلك.
(7)-G. Sédillot, Op.Cit, p 253.---- (8)-Ibid, p 02.---- (9)-Ibid, p 292.
(10)-أوضح سيدييّو هذا الأمر في واجهة كتابه.---- (11)- ينظر مقدمة كتاب بول بورد.
A travers l'Algérie souvenir de l'excursion parlementaire, Septembre – Octobre 1879, Ed. G.Charpentier, Paris, 1880.---- (12)-Paul Bourde, Op .Cit, p 64.---- (13)-Ibid, p 65.---- (14)-Ibid, p73.
(15)- ثروت عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، ط 1، دار الشروق، القاهرة، 1994، ص 64-65.
(16)-Paul Bourde, Op .Cit, p 73- 74.---- (17)-Ibid , p 66-67.---- (18)-Ibid, p 89.---- (19)-Ibid, p 91-92.
(20)- كتب الرحالة البولوني الأمير ليبوميريسكي Lubomnirski، والذي زار قسنطينة سنة 1880 « تعتبر قسنطينة بمنأى عن الحضارة المدنية لمّا خصصت شارعا لليهود، إنّه كالبالوعة المقرفة». ينظر
J. Lubomnirski, les pays oubliés, la cote Barbaresque et le Sahara; excursion dans le vieux Monde, Ed. E Dentu, Paris, 1880, p 155.
(21)-Paul Bourde, Op .Cit, p 91-92.---- (22)-Ibid, p 93.---- (23)-Ibid, Idem.---- (24)- Ibid, p 141.
(25)- Ibid, p 265.---- (26)- Louis Régis, Constantine voyages et séjours, Ed . Calmann Lévy, Paris, 1880, p 04.
(27)-Ibid, p 157-158.---- (28)- Ibid , p 145-146.---- (29)- Ibid, p 06-07.---- (30)- Ibid, p 59.
(31)- Ibid, Idem .---- (32)-Ibid, p 66.
(33)-C . Taupiac, les Israelites indigènes ; réponse à la pétition du M Du Bouzet, Ed. L Marle libraire, Constantine, 1871, p14.---- (34)- Ibid, Idem.---- (35)- Louis Régis, Op.Cit, p 205-206.---- (36)-Ibid, p 206.
(37)- وهو من الشوارع الرئيسية للمدينة يمتد من سوق العاصر إلى ساحة لابريش la Brèche بمسافة 800م.
(38)- Louis Régis, Op.Cit, p 210-211.
(39)- في كتاب حول مقاطعة قسنطينة في الفترة بين 1839-1840؛ يذكر مؤلفه المجهول أن النشاط اليهودي قد بدأ سريعا بعد الاحتلال الفرنسي، فقد قدم إلى مدينة قسنطينة سنة 1838 اليهودي نربوني Narboni، وهو سليل عائلة تقيم بقسنطينة، وباشر بسرعة عمليات التجارة فقام بشراء عدة منازل في عهد الحاكم نيقريي Négrier. ينظر
X, la province de Constantine en 1839 et 1840, Ed. Félix Locquin, Paris, 1843, p.26.
(40)- louis Régis, Op.Cit, p 212-213.---- (41)- Ibid, p 215.
(42)-A B . Cahen, les juifs dans l'Afrique septentrionale, Ed. Arnolet, Constantine, 1867, p 96-97.
(43)- لاقاليت هي ساحة رحبة الصوف في قلب قسنطينة.
(44)-Constantine, Biskra, El kantra, Timgad, Touggourt, Ed . Librairie Hachette, Paris, 1923, p 12.
(45)- Louis Régis, Op .Cit, p 215.---- 46)- Ibid , Idem.----47) Ibid, Idem.----48)-Ibid, p 126.----(49-Ibid, p344.

Abstract:

The steps pursued by the French administration to try to control the Algerians, and in order to achieve the sovereignty of the country; is to work on the knowledge and study social their structure, and cultural, where emerged a number of writers and travelers who embarked on the study of Algerian society, and this since the early years of the occupation.

We'll take care in our study the trips to east of Algeria, exactly the city of Constantine. Our study will be concerned with social class was part of the civil society of the city, and we mean our word class Jews, what is their image in the imagination of writers and travelers the French? And to what extent these according to clarify the Jews in the development and their interaction with the community?